

التعبير عن الذات في شعر العصر العباسي الأول

Self-expression in the poetry of the first Abbasid

أ.م.د. سوسن صائب المعاضيدي^(١).

Ass. Proff. Dr: Sawsan Saeb Almaadida⁽²⁾,

الخلاصة

هذا البحث يتحدث عن أثر الذات الإنسانية عند شعراء العصر العباسي الأول وما عانوه في حياتهم من فقد البصر، أو ألم السجن، أو المعاناة من الفقر والحرمان، فلقد صور هؤلاء الشعراء مآسيهم بصور شعرية رائعة بثوا من خلالها آلامهم ومآسيهم وما أحسوا به من خلال هذه المعاناة.

Abstract:

This research is talking about the impact of the human self when poets Abbasid first and suffered in their lives from vision loss, or pain prison, or suffering from poverty and deprivation, has pictures of these poets tragedies images lattice wonderful stayed through their pain and tragedies and felt him through this suffering.

هذا البحث يتحدث عن أثر الشعر في تصوير الذات الإنسانية عند شعراء العصر العباسي الأول الذين تناولوا في أشعارهم ما أحسوا به من فقد للبصر، أو أسى الفقر وويلاته أو ما عانوه من حوادث الأيام والسجن ونكباته، وقد أشار الدكتور محمد مصطفى هدارة إليه بالقول: (نزعة

١ - جامعة بغداد. / كلية التربية - ابن رشد / قسم اللغة العربية

2 - College of Education, Ibn Rushd university of Baghdad

واضحة كل الوضوح في شعر القرن الثاني ، وهذا الاتجاه كان قليل الظهور في الشعر القديم بالمعنى الذي نقصده وهو العكوف على النفس وتحليلها ، وإلا فالشعر كله إنما هو تعبير عن الذات^(٣) . وأطلق عليه تسمية (الشعر الذاتي) وهذه التسمية تحمل في مداولاتها عمقاً حسناً ذاك أنها تعنى بتصوير ما في نفس الشاعر الذي يتعرض لحادث فقد البصر ، أو سوء الحال ، أو السجن .

فقد البصر:

من الطبيعي أن تتأثر النفس الانسانية بنشاط أعضائها فتخمل أو تنشط وفق ما تعمل عليه هذه الاعضاء ، فإذا فقد الانسان جزءاً أو عضواً منها فإنه سيعاني من جراء ذلك ويبدو ذلك واضحاً في شخصيته وسلوكه وتصرفه العام مع الناس .

ولما كانت نعمة البصر التي منحها الله سبحانه وتعالى هي أعظم نعمة ، فإن فقدانها يسبب بالتأكيد أذى نفسياً كبيراً لصاحبها ذلك أنه الأعمى يشعر بقلق كبير تجاه ما حوله ناتج عن الشعور بالقصور الأمر الذي ينتج عنه عدم الأمان لذا (إن الكفيف يشعر بخوف دائم مما حوله ، ويتجنب الخوض في مغامرات استطلاعية فتظل معرفته عن البيئة معرفة ناقصة ، لأن جزءاً كبيراً من المعرفة بالعالم الخارجي يأتي عن طريق الرؤية والكفيف محروم منها ، فإذا أضفنا الى ذلك عزوف الكفيف عن المغامرات الاستطلاعية التي تعرضه للأذى أدركنا النقص الكبير في حصيلته من معرفة البيئة)^(٤) . ولقد وصف د. طه حسين نفسية الأعمى مشيراً الى أن (هذه المصيبة تورث صاحبها من الحزن ما يلزمه في جميع أطوار حياته لا يفارقه ولا يعدوه ذلك لأنه يذكر بصره كلما عرضت له حاجة ، وكلما ناله من الناس خير أو شر ، بل كلما لقيهم في مجمع عام أو خاص ، فما يزال الحزن يؤلمه ويجزه إلا أن يفقد الشعور وتصيبه البلادة المطلقة)^(٥) .

إن رؤية الدكتور طه حسين هي أصدق ما يمثل الحالة النفسية للمكفوفين وألمهم الحار من عاهتهم هذه وهو في موضع آخر يقول : (والمكفوف إذا جالس المبصرين أعزل ، وأن بزهم بأدبه وعلمه وفاقهم بذكائه وفطنته فقد يتندرون عليه بإشارات الأيدي وغمز الالحاظ ، وهز الرؤوس ، وهو عن كل ذلك غافل محجوب ، فان نمت عليهم بذلك حركة ظاهرة أو صوت مسموع فحجته عليهم منقطعة وحجتهم عليه ناهضة ، وليس له من ذلك إلا ألم يكتمه وحزن يخفيه)^(٦) . ولما كان الشعراء يمتلكون حساً مرهفاً وذائقة شعرية رائعة لذا راحوا يصورون مشاعرهم وما يتألمون منه

٣- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د. محمد مصطفى هدارة ، ص ١٧٤ ، ط / دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ .

٤- شعر المكفوفين ، ص ١٨ .

٥- تجديد ذكرى أي العلاء ، ص ١١٢ .

٦- م. ن. ص ١١٢ .

بأصدق المشاعر وأعمقها. فهذا صالح بن عبد القدوس* (ت ١٦٧هـ)، يرثي نفسه بفقده بصره فيقول:

عزاؤك أيها العين السكوبَ ودمعك أنها نوب تنوبَ
وكننت كرميتي وسراج وجهي وكانت لي بك الدنيا تطيبَ
فأن أك قد ثكلتك في حياتي وفارقني بك الألف الحبيب^(٧).

يعزي الشاعر نفسه بفقده عينه وهي أعز نعمة أنعم الله بها على عباده ذاكراً أن هذه هي مصائب تصيب الأفراد، ولا بد لكل فرد نصيبه من هذه النوائب، مخاطباً عينه بالقول إنها كانت سراجاً له وكانت دنياه بها تطيب، فأن كان قد فقدها في حياته، فإن كل أليفين لابد لها من فراق.

ثم يستمر في بثه حزنه على عينه في قصيدته هذه فيقول:

على الدنيا السلام فما لشيخ ضرير العين في الدنيا نصيبَ
يموت المرء وهو يعد حيا ويخلف ظنه الأمل الكذوبَ
يمنيني الطبيب شفاء عيني وما غير الإله لها طبيب
إذا ما مات بعضك فابك بعضاً فأن البعض من بعض قريب^(٨)

لقد أودع صالح بن عبد القدوس أحزانه في الأبيات مصوراً فيها حزنه على عينه، إذ ودّع الدنيا مسلماً موضحاً أن الشيخ الضرير ليس له في هذه الدنيا حظ أو نصيب، إذ أنهى فقده عينه كل أمل لديه، وها هو ذا الطبيب يمنيه بالشفاء وليس يشفيها إلا الله سبحانه وتعالى، على أن الشاعر أودع حكمة في أبياته حينما يقرر أن موت عضو أو جزء من الانسان إنما هو موت للكل لأن البعض من بعض قريب.

ولأبي الشيص الخزاعي* (ت ١٩٦هـ) أبيات تنم عن إحساسه بالألم من جرّاء فقد عينه فيقول:

يا نفس بگي بادمع هتن وواكف كالجمان في سنن
على دليلي وقائدي ويدي ونور وجهي وسائس البدن
أبكى عليها مخافة أن يقرني والظلام في قرن^(٩)

* صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدي الجذامي مولاهم، أبو الفضل شاعر حكيم، كان متكلماً يعظ الناس في البصرة، شعره كله حكم وأمثال أتهم عبد المهدي بالزندقة فقتله. ينظر: أمالي المرتضى ١/١٠٠، فوات الوفيات ١٩١/١، وفيات الأعيان ٤٩٢/٢.

٧- ديوان صالح بن عبد القدوس، ص ١٢٨، ق ١٢.

٨- شعر صالح بن عبد القدوس، ص ١٢٨، ق ١٢.

* هو محمد بن رزين بن سليمان بن تميم بن نهشل، وأبو الشيص لقب غلب عليه وكنيته أبو جعفر وهو عم دعبل الخزاعي، عمي في آخر عمره وله مراث في عينيه (ت ١٩٦هـ)، أشار الخطيب البغدادي إلى أنه ابن عم دعبل، وله قصيدته الضادية التي استحسناها الشعراء وأولها:

أبقى الزمان به ندوب عضاض ورمى سواد قروتها بيباض

ينظر الاغانى ١٠٤/١٥، تاريخ بغداد ٤٠١/٥.

٩- اشعار ابي الشيص، ص ١٠٣.

ان شدة الألم في نفس أبي الشيص تدفعه للبكاء بدموع هتانة شديدة مشبهاً هذه الدموع بأنها كالجمان ذاك أن عينه كانت دليله الذي يهديه وقائده ونور وجهه وسائس بدنه.
وأما الشاعر أبو يعقوب الخرمي (ت ٢١٤هـ) فقد أثاره فقد بصره حتى ناء بذلك الفقد وأشتكى

ألمه بأبيات تفصح وتبين شدة معاناته إذ يقول:

كفى حزناً أن لا أزور أحبتي
وأنى إذا ما حييت ناجيت قائدي
إذا ما أفاضوا بالحديث تقاصرت
كأنى غريب بينهم لست منهم
أفاسي خطوباً لا يقوم بثقلها
من القرب إلا بالتكلف والجهد^(١٠)
ليعدلني قبل الاجابة بالرد
بي النفس حتى ما أحير وما أبدي
فأن لم يحولوا عني رخاء وعين عهد
من الناسي إلا كل ذي مرة جلد^(١١)

ويتضح لنا من الأبيات المذكورة آنفاً شدة وجسامة معاناة الشاعر الذي كلفه فقد بصره مشاقاً وصعوبات جمّة إذ هو محتاج لمن يعينه على زيارة من يريد رؤيتهم من أحبته وهو يحتاج مساعدة لرد السلام، فضلاً عن إحساسه بالغربة وهو بين خلّانه وأهله، وتلك المعاناة صورها أبو يعقوب الخرمي بأنه لا يقوم بها إلا من كان جليداً صابراً ذا همّة عالية.

ولعل خير تصوير لمعاناة الشاعر الذاتية تبرز عند الخرمي حين أكثر من رثاء عينه، وقد كانت بمثابة تأوهات ذاتية حزينة صدرت عنه من مثل قوله:

أصغي الى قائدي ليخبرني
أريد أن أعذل السلام وأن
أسمع ما لا أرى فأكره أن
إذا التقينا عمّن يحييني
أفصل بين الشريف والدون
أخطيء والسمع غير مأمون^(١٢)

لقد صور الشاعر ذاته الحزينة خير تصوير، ولقد أحسن الخرمي في طباقه في قطعه هذه بين (لفظتي الشريف والدون) ذلك أنها أضافت دفقة معنوية للقطعة فضلاً عن اشارته لرموز تأريخية معروفة مثل سيدنا نوح - عليه السلام - و(قارون) الذي ورد ذكره في القرآن الكريم هذه الاشارات عززت من إحساسه بالألم والحزن لفقد عينه، إذ هو محتاج الى غيره، ليقوده وليخبره عمّن يسلم عليه، وهو يسمع ما لا يرى، فيخاف أن يخطيء سمعه لأن السمع غير مأمون، ويتمنى الشاعر أن تعود اليه عينه التي فجع بها فهو حينذاك سيستبدلها بعمر نوح وما عاش وملك قارون الذي أعطاه الله له فيقول:

لله عيني التي فجعت بها
لو كنت خیرت ما أخذت بها
لو أن دهرأ بها يواتيني
تعمير نوح في ملك قارون

١٠ - ديوان الخرمي: ٧٧.

١١ - ديوانه: ٧٧،

١٢ - ديوانه ٧٩.

حق أخلائي أن يعودوني وأن يعزّوا عني ويكنوني^(١٣)

ويبدو الخرمي مكابراً يحاول أن يعيد التوازن النفسي الذاتي لروحه التي آذاها فقد البصر مبيناً إن كان الله سبحانه وتعالى قد أخذ منه بصره فقد عوضه بالعقل واللسان إذ يقول:

إن يأخذ الله من عيني نورهما قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل
ففي لساني وقلبي منهما نور وفي فمي صارم كالسيف مأثور^(١٤)

ويدعو عينه إلى عدم الجزع وإلى التصبر فيقول:

عزاءك يا عين لا تجزعي عزاء وصبراً فإن الأسى
وضناً بمائك لا تدمعي كثير وإن حياتي معي^(١٥)

وهكذا يتبين لنا المعاناة الذاتية التي عاناها الشعراء المكفوفون أو من فقد إحدى عينيه، وقد برز عندهم تصوير الذات ومعاناتها واضحاً من خلال بثّ الألم والحزن على ما فقدوا ومن خلال الدعوة إلى الصبر على هذا الفقد.

سوء الحال والفقر:

إن الحالة الاقتصادية المترفة والبنخ والعطاء الذي عمّ المجتمع العباسي في هذا العصر، وما رافق ذلك من رخاء مادي واضح في كثير من مرافق الحياة الاجتماعية، كل هذا الترف الذي ذكرته كتب الأدب والتاريخ، والذي أشتهر به كثير من رجالات الدولة العباسية والحاشية، في الوقت الذي يعاني منه فقراء المجتمع والطبقة البائسة حالة من البؤس والحرمان والعوز المادي، كل ذلك كان مدعاة لبيان هذه المشكلة وصداها لدى شعراء الدولة العباسية في هذا العصر.

فقد أسهب مؤرخو الأدب العباسي في بيان الحالة الاجتماعية المترفة التي كان عليها العصر العباسي، إذ أشار المؤرخون إلى أن: (خزائن الدولة هي المعين الغدق الذي هياً لكل هذا الترف، فقد كانت تحمل إليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض^(١٦)، وأشاروا إلى أن كل هذه الأموال كانت تجري لحساب الخلفاء والوزراء والقواد والشعراء والمغنين^(١٧). ومن الطبيعي القول بأن الترف الذي عمّ أرجاء الحياة المختلفة للوزراء والخلفاء والقواد وكبار رجال الدولة كان على حساب الطبقة العامة المحرومة، فجمهور الناس يعيش على الضنك وشطف العيش ويعاني الحرمان^(١٨).

فقد ذهب د. شوقي ضيف إلى القول: (ومن المؤكد أن الطبقات البائسة في العصر، كانت أكثر طبقاته عدداً، وكانت تكدح وتشقى وتتصبب عرقاً لينعم الخلفاء والوزراء وعلية القوم وكبار

١٣- ديوانه: ٦١.

١٤- ديوانه: ٧٧.

١٥- م.ن: ٤٦.

١٦- العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ص ٤٥.

١٧- ينظر العصر العباسي الأول، ص ٤٥.

١٨- م.ن. ص ٥١.

التجار والأقطاعيون بالحياة الرغدة والعيش الناعم غير مفكرين في جوع جائع، ولا في عري عار، بينما تتجرع الطبقات الفقيرة آلاماً ثقالاً، وأهوالاً طوالاً، وكأنما عميت الأبصار وصمت الأسماع^(١٩).

لذا وبناءً على ما تقدم تجدرُ بنا ملاحظة أن: (مشكلة الفقر أو مأساته مصدر الهام لبعض الشعراء الذين يعيشون فيها، ويعانون منها)^(٢٠).

وهذه العبارة تستدعي الوقوف عندها، والنظر فيها مرة بعد مرة، إذ نجد شعراء عانوا من الفقر والعوز وسوء الحال وأكثروا من تصوير ذلك في أشعارهم.

وقد أشار د. حسين عطوان الى منحة هؤلاء الشعراء مؤكداً أنهم (اعتمدوا النقد اللاذع والتشهير والتعريض والهزاء المقذع لأكراه الوزراء والعمال والتجار والشعراء الميسورين على إجراء الصلات القليلة عليهم حتى يكفلوا الحياة لأنفسهم ولأولادهم)^(٢١).

فهذا "أبو الشمقمق" (ت ١٨٠ هـ) يعد غير منازع أكثر الشعراء تصويراً للفقر، وهو يبين سوء حالته الاجتماعية ذاكراً أن لا بيت له إذ منزله الفضاء وسقف بيته السماء.

فإذا أراد ضيفه دخول بيته فإنه يدخل ويسلم عليه على الفور، إذ لا باب عنده وليس لديه مصراع لذلك الباب:

برزت من المنازل والقباب	فلم يعسر على أحد مجابي
فمنزلي الفضاء وسقف بيتي	سماء الله أو قطع السحاب
فأنت إذا أردت دخلت بيتي	علي مسلماً من غير باب
لأنني لم أجد مصراع باب	يكون من السحاب إلى التراب
ولا أنشق الثرى عن عود تخت	أو مل أن أشار به بيابي ^(٢٢)

وهو لا يخشى هروب عبيده أو خروجهم عن طاعته ولا يخاف هلاك دوابه لأنه لا عبيد له ولا دواب، وهو يرى أن راحة باله آتية من أنه لا يملك شيئاً فليس لديه ما يمكن أن يحاسب بسببه قهرماناً أو غيره:

ولا خفت الابق على عيدي	ولا خفت الهلاك على دوابي ^(٢٣)
ولا حاسبت يوماً قهرماني	محاسبة فاغلظ في حسابي
وفي ذا راحة وفراغ بال	فدأب الدهر ذا أبدا ودأبي ^(٢٤)

١٩ - الشعر وطوابعه الشعبية، ص ٨٨.

٢٠ - اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، د. شوقي ضيف، ص ١٧٧.

٢١ - الشعراء الصعاليك، د. حسن عطوان، ص ٩٣.

* هو مروان بن محمد شاعر هجاء من أهل البصرة خراساني الأصل: ينظر: تاريخ بغداد ١٣/ ١٤٦.

٢٢ - شعراء عباسيون، ق ٢، ص ١٣١.

٢٣ - المصدر نفسه.

٢٤ - المصدر نفسه.

وقد خاطب أبو الشمقمق المنصور سائلاً وصله وعطاءه بقصيدة ذكرها ابن المعتز في (طبقات الشعراء) مدح في أثنائها المنصور قائلاً:

يا أيها الملك الذي	جمع الجلالة والوقارة
ورث المكارم صالحاً	والجمود منه والعمارة
أنني رأيتك في المنا	م وعدتني منك الزبارة
فغدوت نحوك قاصداً	وعليك تصديق العبارة ^(٢٥)

ثم مضى في قصيدته شاكياً حاله وحال عياله الذين أغياهم الفقر، وهم لا يملكون شيئاً من طعام أو شراب قائلاً:

إن العيال تـركـتهم	بالمصر خبزهم العصاره
وشربهم بول الحمار	مزاجه بول الحمارة ^(٢٦)

ولقد أشار الدكتور هدارة إلى أن هذا النوع من الشعر يعد شعراً ذاتياً، وسبب تسميته بالشعر الذاتي في رأيي أنه يصور بحق معاناة الشاعر النفسية وما يشعر به من أذى وحرمان وأنه يعبر عن تجربة خاصة ومعاناة شخصية فمن ذلك أن أبا الشمقمق يرجع حالته البائسة وما هو فيه من فقر إلى سوء بخته، إذ يرى أنه لو ركب البحر لأنقلب ذلك البحر صحراء قاحلة، ولو وضع في يده جوهرة ثمينة لعادت زجاجاً رخيصاً ليس بذي قيمة قائلاً:

لو ركب البحار صارت فجاجاً	لا ترى في متونها أمواجاً
فلو أني وضعت ياقوتة حمـ	راء في راحتي لصارت زجاجاً ^(٢٧)

ويلغ الأسي به ذروته في قوله: إنه لو ورد مياهاً عذبة لعادت ملحاً أجاجاً في قوله:	ولو أني وردت عذبا فراتا
فألى الله أشتكى وإلى الفضل	عاد لا شك فيه ملحاً أجاجاً
	ل فقد أصبحت بزاتي دجاجاً ^(٢٨)

وفي نص آخر يستمر بالشكوى ذاكراً خلوّ بيته من الخبز واللحم والشراب وقد جاءهم العيد وليس عندهم تمر ولا خبز ميبناً أن دهرهم قد عاداهم عداوة الصقر للوز قائلاً:

ما جمع الناس لديناهم	أنفع في البيت من الخبز
والخبز واللحم إذا نلتـه	فانت في أمن من التـرز
والقلز من بعد على أثره	فأئـمـا اللـذات في القلـز
زقد دنا الفطر وصبياننا	ليسوا بذي تمر ولا أرز

٢٥- طبقات الشعراء، ص ١٢٧.

٢٦- المصدر نفسه.

٢٧- شعراء عباسيون، ق ٥، ص ١٣٢.

٢٨- م.ن.

وذاك أن الدهرَ عاداتهم عداوة الشاهين للوز^(٢٩)

فهم إذا ما رأوا خبزاً على مكانٍ عالٍ أسرعوا إليه يقفزون ولكنهم لا يطيقون القفز لأنهم جائعون:

فلورأوا خبزاً على شاهق ولو أطاقوا القفز ما فاتهم
لأسرعوا للخبز بالجمز وكيف للجائع بالقفز^(٣٠)

ولم يكن تصوير سوء البخت مقصوداً على أبي الشمقمق فقد شاركه في شعراء بائسون لا يقلون عنه شأنًا في تصوير سوء حظهم وفقدهم مثل أبي فرعون الساسي، فقد ذكر ابن المعتز في طبقات: (أتى أبو فرعون الساسي أبا كهمس التاجر، فسأله، فأعطاه رغيفاً من الخبز الحواري كبيراً فصار إلى حلقة بني عدي، فوقف عليهم وهم مجتمعون، فأخرج الرغيف من جرابه، والقاء في وسط المجلس، وقال: يا بني عدي، أستفحلوا هذا الرغيف، فانه أنبل نتاج على وجه الأرض، قالوا: وما ذاك؟ فأخبرهم فاجتمعوا إلى أبي كهمس التاجر، فقالوا: عرضتنا لأبي فرعون وقد مزقنا كما ممزق^(٣١)).

وأشار ابن المعتز إلى شاعريته وأجادته بقوله: (ومما يستملح له - وكان من أفصحهم وأجودهم شعراً - وأكثرًا نادة^(٣٢))، وأستدرك على ذكره بالقول: (ولكنه لا يصبر عن الكدية)^(٣٣)، وقد ذكر له أبياتاً شعرية تصور شكواه من بخته فمن ذلك بقوله:

رأيت في النوم بختي رأيت في حال تعالي الله
أعمى أصم ضئيلاً ليس لي شيء إذا قيـ
فقلت: حيت رزقي ولقد أهزلت حتى
فكيف لي بدواء ولقد أفلست حتى

وفي الاتجاه ذاته يشير أبو فرعون الساسي إلى سوء حالة شاكياً الفاقة والحرمان، مبيناً أن الله - ﷻ - يعلم ما وصل إليه حالة، إذ لا شيء عنده، فهو مهزول ضعيف البنية حتى أن الشمس قد محت خياله، وهو مفلس حتى حل أكله لعياله قائلاً:

رأي أي حال أنا في حال تعالي الله
للمن ذا؟ قلت: ذا لي محت الشمس خيالي
حل أكلني لعيالي

٢٩- طبقات الشعراء لابن المعتز، ص ١٢٧.

٣٠- م.ن، وينظر شعراء عباسيون، ق ٢٥، ص ١٤٠.

٣١- طبقات الشعراء، ص ٣٧٦.

٣٢- م.ن.

٣٣- م.ن.

٣٤- طبقات الشعراء، ص ٣٧٦.

مَنْ رَأَى شَيْئًا مَحَالًا فَأَنَا عَيْنَ الْمَحَالِ
فِي حَرِّمِ اللَّهِ طَرًّا مَنْ نَسَاءٍ وَرَجَالِ
لَوْ رَأَى فِي النَّاسِ حَرًّا لَمْ أَكُنْ فِي ذَا الْمَثَالِ^(٣٥)

والقارئ للأبيات المذكورة في أعلاه، ويستشعر قدرة هذا الشاعر وقابليته ومهارته في تجسيد الحالة التي وصل إليها وتصويرها، والبيت الثالث يؤكد مقدرته الشعرية إذ دُلَّ على هزالة حتى أن الشمس قد مَحَت خياله وفي ذاك مبالغة واضحة.

(وكان البؤس - على ما يبدو - ينهك حياته ويكلفه هو وأسرته من الجوع والعري في ليالي الشتاء الباردة، فلا يستطيعون أحتماله ولا منقذ ولا معين، وله يصور ذلك تصويراً دقيقاً)^(٣٦)، وفي ذاك يقول:

وصيبةٌ مثل صغار الذرِّ جاءهم البرد وهم بشرِ
بغير قميصٍ وبغير أزرٍ تراهم بعد صلاة العصرِ
حتى إذا لاح عمود الفجرِ وجاءني الصوت غدوت أسري
وبعضهم ملتصق بصدري وبعضهم منحجر مججري
أسبقهم إلى أصول الجدرِ هذا جميع قصتي وأمري
فارحم عيالي وتولّ أمري كنيت نفسي كنية شعري

أنا أبو الفقر وأم الفقر^(٣٧)

وقد وصف د. شوقي ضيف القطعة الأنفة الذكر بأنها: (بديعة في تصوير بؤس أبي فرعون وبؤس عياله، فهم عراة في زمهرير الشتاء وهم يلتصقون بصدر أبيهم وظهره وحجره يطلبون الدفء، ويطلبون ويعللهم بالصباح، حتى إذا لاح فرج على وجهه لا يليو، راجياً أن ييسر له ما يستطيع أن يرد به عنهم شيئاً من الجوع والعري، وهم في الحجرة متكومون بجانب جدرانها، وكأنهم خنافس متكومة في جحر فياللهول، يالفقر وياللبؤس)^(٣٨). وتعبير أبي فرعون عن نفسه بأنه أبو الفقر وأم الفقر لهو خير دليل على ما وصلت إليه حال هذا الشاعر من شدة البؤس والفاقة. وفي قصيدة أثنى على حسناتها وفصاحتها ابن المعتز يمدح أبو فرعون الحسن بن سهل ويشكو حاله مبيناً فقره قائلاً:

أشكو اليك صيبةً وأمهم لا يشجعون وأبوهم مثلهم
قد أكلوا اللحم ولم يشبعهم وشربوا الماء فطال شربهم
وأمتذقوا المذق فما أغناهم والمضغ أن نالوه فهو عرسهم^(٣٩)

٣٥- شعراء عباسيون، ق ٤٥، ص ١٤٩.

٣٦- الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور، د. شوقي ضيف، ص ٨٨.

٣٧- طبقات الشعراء، ص ٣٧٧.

٣٨- الشعر وطوايعه، ص ٨٩.

٣٩- طبقات الشعراء، ص ٣٧٨.

فهؤلاء الصبية لا يعرفون من الخبز إلا أسمه، وليس عندهم تمر، أما الفاكهة فلم يتمكنوا من رؤيتها في السوق وهم في حال مزرية من سوء التغذية قائلاً في ذلك:

لا يعرفون الخبز إلا بأسمه
وما رأوا فاكهة في سوقها
زعر الروس قرعت هاماتهم
كأنهم جناب أرضٍ مجذبٍ
بل لو تراهم لعلمت أنهم
وجحشهم أجرب منقور القرى
والتمر هيهات فليس عندهم
وما رأوها وهي تنحو نحوهم
من البلا وأستك منهم سمعهم
محل فلو يعطون أوجى سمهم
قوم قليل ريهم وشبعهم
ومثل أعواد الشكاعي كلبهم^(٤٠)

على أن أبرز ما يشكو منه الشعراء البائسون الفقراء هو هروب الفأر والذبان والسنور من بيوتهم لخلوها مما يمكن أن تقتات عليه من طعام ونحوه وقد ذكر ذلك أبو الشمقمق قائلاً:

ولقد قلت حين أقفر بيتي
ولقد كان أهلاً غير قفر
فأرى الفأر قد تجنبن بيتي
ودعا بالرحيل ذبان بيتي
وأقام السنور في البيت حولاً
ينقض الرأس منه من شدة الجو
من جراب الدقيق والفخاره
مخصباً خيره كثير العمارة
عائذات منه بدار الأمانة
بين مقصوفة إلى طياره
ما يرى في جوانب البيت فاره
ع وعيش فيه أذى ومراره^(٤١)

ويعقد أبو الشمقمق حواراً لطيفاً بينه وبين السنور داعياً إياه إلى الصبر إلا أن ذلك السنور يجيبه بعدم قدرته على الصبر في بيت مقفر من الأكل ثم يعود أبو الشمقمق ليرسم له بالخروج إلى حيث المكان المخضب المملوء بالقوت قائلاً:

قلت لما رأيته ناكس الرأس
ويك صبراً فانت خير من سنو
قال: لا صبر لي وكيف مقامي
قلت: سر راشداً إلي بيت خان
وإذا العنكبوت تغزل في دني
وأصاب الجحام كلبى فأمسى
س كئيباً وفي الجوف منه حراره
رأته عيناى قط بحاره
وسط بيت كجوف الحماره
مخصب رحله كثير التجاره
وحبي الكوز والقرقاره
بين كلب وكلبة عياره^(٤٢)

ومطية أبي الشمقمق هي رجلاه متمنياً أن تكون له مطية يوماً ما:
أتراني أرى من الدهر يوماً
كلما كنت في جميع فقالوا
لي فيه مطية غير رجلي
قربوا للرحيل قربت نعلي

٤٠ - م.ن.
٤١ - شعراء عباسيون، ق ٢٣، ص ١٣٨.
٤٢ - م.ن.

حيثما كنت لا أخلف رجلاً من رأني فقد رأني ورحلي^(٤٣)

ويوازن العماني* الراجز بين عربي بالي الأطمار رث الثياب جائع البطن وبين شخص مترف، يمتلك مالا وله من القيان والعبيد والجواري الشيء الكثير، والعماني الراجز في عقده هذه الموازنة يشرح سوء حالة العربي وفقره راسماً بذلك صورة شعرية بديعة إذ يقول:

لا يستوي منعم بندار	له قيان وله حمار
مقصص قصه البيطار	يطيف في السوق به التجار
وعربي برده أطمار	يظل في الطرق له عثار ^(٤٤)
قد نصلت من رجله الأظفار	يأوي إلي حصن له أوار
أحدب قد مال به الجدار	لا درهم فيه ولا دينار
يأكل هزلي الفار فيه الغاز	في بلدة عال بها الغبار

ويصف العماني الراجز أهل هذه البلدة وما فيها من ترف ونعمة قائلاً في ذلك:

ليس على كهل بها وقار	مثل الشياطين إذا أستشاروا
لهم دنان ولهم جرار	وفاشفارات لها قفار

في اليسر لا يطع فيه الجار^(٤٥)

من خلال الأمثلة المذكورة يتبين أن الشعراء المذكورين أعتمدوا أسلوب السخرية والفكاهة للتعبير عن فقرهم، وهذه ظاهرة تستحق الالتفات، زيادة على أن هؤلاء الشعراء لم يتعرضوا لقضية الظلم الاجتماعي وسوء توزيع الثروات. وأن أشعارهم من النوع الذي يمكن أن يوصف بالآدب الجماهيري (الشعبي) الذي يعبر عن قضايا المجتمع وهمومه.

السجن:

خلق الله سبحانه وتعالى بني البشر أحراراً فإذا ما قيدت حرياتهم شعروا عند ذاك بالضيق والأسى لذا عد السجن من الأماكن غير المستحبة أو المرغوب فيها، بل من الأماكن المرفوضة، فالإنسان لا يسعى إليه بإرادته وإنما يفرض عليه فرضاً، وهو تقييد حرية الإنسان، فضلاً عن شعور السجين بالوحدة والانفراد والعزلة.

ولقد عرفه أحمد محمد الزعبي فأشار إلى أنه ذلك المكان الذي تتحدد فيه إقامة الشخص المتهم وتقييد فيه حريته، وهو بغض النظر عن كونه قد خصص ليكون سجنًا أو هيأ ليكون مكان احتجاز، أو كان تحديد إقامة للشخص مكان غير مألوف وغير محبوب^(٤٦).

٤٣- شعراء عباسيون، ق ٣٧، ص ١٤٥.

* هو محمد بن ذؤيب بن محمد بن قدامة الحنظلي الدارمي راجز من بني تميم. ينظر: الأعلام للزركلي.

٤٤- طبقات الشعراء، ص ١١٣.

٤٥- طبقات الشعراء، ص ١١٣.

٤٦- ينظر أسس علم النفس الجنائي، ص ٢٨١، أحمد محمد الزعبي، دار زهران، عمان، ٢٠١٠.

ولما كان السجن تقيداً لحرية الإنسان ليعده عن مجتمعه ، ويفرض عليه قيوداً تأبأها نفسه ، لذا كان من يسجن من الشعراء يظل يشكو ويتأفق بأبيات تشعر بالمعاناة الذاتية التي يحسها الشاعر السجين ومدى الألم النفساني الذي يعيشه ، فهذا الألم وتلك التأوهات لا يستشعرها إلا من قد ذاقها بنفسه وأكتوت روحه بها ، فمن ذلك ما قاله صالح بن عبد القدوس (ت ١٦٧هـ) في قوله :

الى الله أشكو إنه موضع الشكوى وفي يده كشف المضرة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إذا دخل السجن يوماً لحاجة عجبنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا^(٤٧)

والرؤيا عند السجناء مهمة جداً فهي محور حديثهم وبها يحلو حديثهم فإن كانت رؤيا حسنة أبطأت وأن كانت قبيحة تعجلت بالجيء ، وفي هذا يقول صالح بن عبد القدوس .

ونفرح الرؤيا فجعل حديثنا إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فإن حسنت لم تأت عجلي وأبطأت وأن قبحت لم تحتبس وأتت عجلي^(٤٨)

والأخبار عندهم مقطوعة إذ حيل بينهم وبينها يسجن منع الأسوار ، وهم مدفونون فيه ، أقاموا في هذه الدنيا ولكنهم فارقوها لسجنهم وابتعادهم عن مجتمعهم إذ يقول :

واما علي بن الجهم* (ت ٢٤٩هـ) فانه لما حبس كتب الى طاهر بن عبد الله قصيدة وهو في حبسه يقول فيها :

إن كان لي ذنب فلي حرمة والحق لا يدفعه الباطل
وحرمتي اعظم من زلتي لو نالني من عدلكم نائل
ولي حقوق غير مجهولة يعرفها العاقل والجاهل

والقصيدة في حقيقتها استعطاف أكثر منها في تبيان حالته داخل السجن وذكر معاناته إلا أنني ذكرتها لأنه كتبها من سجنه ، وقد أحسن فيها الطباق بين (الحق والباطل) في البيت الأول وكذا بين (العاقل والجاهل في البيت الثالث) ويمضي الشاعر مصوراً حالته فيقول :

وكل أنسان له مذهب وأهل ما يفعل له الفاعل
وسيرة الأملاك منقولة لا جائر يخفى ولا عادل
وقد تعجلت الذي خفته منك ولم يأت الذي أمل^(٤٩)

إلا أن قصيدته التي تفصح عن شدة معاناته في سجنه هي تلك التي مدح بها جعفر المتوكل والتي أشار لها أبو الفرج الأصفهاني بقوله : (وأحسن شعر قاله في الحبس قصيدته التي أولها :

٤٧ - شعر صالح بن عبد القدوس ، ص ١٣٧ ، عبد الله الخطيب ، ط دار منشورات البصري ، بغداد ، ١٩٦٧ .

٤٨ - م.ن .

* علي بن الجهم هو أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم.... الشاعر المشهور أحد الشعراء المجيدين وله وقد حبس أبياته المشهورة التي أولها قالت : حبست وهي أبيات جيدة في هذا المعنى لم يعمل مثلها) وفيات الأعيان ٣/ ٣٥٥ .

٤٩ - ديوان علي بن الجهم ، ق ٧٨ ، ص ١٦٩ تحقيق خليل مردم بك .

قالت: حُبست^(٥٠).

وأشار إلى سبب حبسه فقال: (أنه كان يسعى بالجلساء إلى المتوكل فأبغضه وأمره أن يلزم بيته، ثم بلغه أنه هجاه فحبسه)^(٥١).

وهذه القصيدة تقع في ٢٨ بيتاً، وقد ذكرها ابن خلكان فقال: (وله وقد حبس أبياته المشهورة التي أولها قالوا: حُبست..... وهي أبيات جيدة في هذا المعنى ولم يعمل مثلها)^(٥٢)، وقد بدأها مخاطباً امرأة لم يسمها بقوله:

قالت: حُبست فقلت: ليس بضائري	حُبسي وأي مَهْنِدٍ لا يَغْمِدُ
أوما رأيت الليث يَأْلَفُ غِيْلَهْ	كِبْرًا وأوباش السباع تَرُدُّ
والشمس لولاً أنها محجوبة عن	عِنْ ناظرِكِ لما أضاء الفرقدُ*
والبدر يدركه السرار فتنجلي	أَياميه وكأنه متجددُ
والغيث يحصره الغمام فما يري	الا وريقه يراح ويرعدُ
والنار في أحجارها مخبوءة	لا تصطلي إن لم تثرها الأزندُ ^(٥٣)

فقد شبه نفسه بالمهند، وهو السيف في غمده، ثم راح يضرب الأمثال ويأتي بتشبيهات مستحسنة ارتاح لها، فالليث يختبئ بالشجر الكثيف ترفعا بنفسه، والشمس تحتجب ولولا أنها متحجبة لما أضاءت النجوم، وكذا البدر الذي يدركه الظلام، والغيث الذي يحصره الغمام، والنار التي تحتبئ في الأحجار، فلا توقد جذوتها إن لم تثر بالزناد، ويستمر ابن الجهم في تصوير نفسه في حبسه فيقول:

والزاعمية لا يقيم كعوبها	إلا الثقاف وجذوة تتوقدُ
غير الليالي بادئيات	والمال عارية يفاد وينفدُ
ولكل حال معقب ولربما	أجلس لك المكروه عما يحمدُ ^(٥٤)
لا يؤسّسك تفرج كربة	خطب رماك به الزمان الأنكدُ ^(٥٥)

ويبدو علي بن الجهم في هذه القصيدة مستذكراً حكماً رائعة داعياً إلى الصبر الذي تعقبه الراحة فيقول:

٥٠ - الأغاني ٢١٣/١٠ تحقيق أحمد زكي العدوي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨.

٥١ - م.ن.

٥٢ - وفيات الأعيان ٣/٣٥٥، تحقيق: د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

* الغيل:

* الفرقد:

٥٣ - ديوان علي بن الجهم: ٤١.

٥٤ - م.ن.

٥٥ - ديوان علي بن الجهم: ٤٢.

كم من عليلٍ قد تخطّاه الردى
فنجبا ومات طيبه والعود
صبرا فإن الصبر يعقب راحة
ويد الخليفة لا تطاولها يد^(٥٦)

ثم يقول بأن هذا السجن لبيت وأنتك إن لم تزره لمحالة تزري بصاحبها فإنه يزار فيه المرء ويكرم فيقول:

والحبس مالم تغشه لدنية
بيت يجدد للكريم كرامة
لو لم يكن في السجن إلا أنه
(شنعاء نعم المنزل المتورد)
ويزار فيه ولا يزور ويحفد
لا يستذلك بالحجاب ألا عبد

ثم يستعطف ابن الجهم القاضي أحمد بن داوود لابلاغ الخليفة ان الذين وشوا به إنما سَعَوْا بالباطل وكان الأخرى بأمير المؤمنين التثبت من الأمر قبل الحكم إذ يقول:

يا أحمد بن دؤاد انما
بلغ أمير المؤمنين ودونه
أنتم بني عم النبي محمد
ما كان من حسن فأنتم أهله
أمن السوية يا ابن عم محمد
إن الذين سعوا اليك بباطل
تدعي لكل عزيمة يا أحمد
خوض العدى ومخاوف لا تنفذ
أولى بما شرع النبي محمد
طابت مغاريسكم وطاب المجد
خصم تقربه وآخر تبعه
أعداء نعمتك التي لا تجحد^(٥٧)

ويبين ابن الجهم أنه لم يجتمع الخصمان إذ كانوا حاضرين وهو غائب، ولو كان حاضراً لتبين للجميع الطريق الواضح المسلك، وأنه إن سمح له يوماً بلقاء الخليفة والتقى بخصومه لدحضهم بالحجة البينة والبراهين الساطعة فيقول:

شهدوا وغنبا عنهم فتحكموا
لو يجمع الخصمين عندك مشهد
فلئن بقيت على الزمان وكان لي
واحتج خصمي واحتججت بحجتي
فيما وليس كغائب من يشهد
يوماً لبان لك الطريق الأقصد^(٥٨)
يوماً من الملك الخليفة مقعد^(٥٩)
لفلجت في حججي وخاب الأبعد^(٥٩)

ثم يختتم قصيدته بأن الله سبحانه تعالى بالغ أمره واليه الرجوع بعد الموت وان الكل لابد صائر الى يوم يجتمع الناس فيه وهو يوم القيامة، متسائلاً في آخر الأمر عن الذنب الذي جعل الأعراض نهبا يتقاسمه اللؤماء فيقول:

والله بالغ أمره في خلقه
ولئن مضيت لقلما يبقى الذي
وإليه مصدرنا غداً والمورد
قد كادني وليجمعنا الموعد

٥٦ - ديوانه: ٤٥.

٥٧ - ديوانه: ٤٦.

٥٨ - ديوان: ٤٦.

٥٩ - م.ن.

فبأيّ ذنبٍ أصبحت أعراضنا نهباً يشيدُ بها الليثُ الأوغد^(٦٠)

والحقيقة أن ألم السجن قد أثر في نفوس هؤلاء الشعراء الذين وجدوا في هذا المكان تقييداً مجحفاً لحرياتهم وسلباً ظالماً لآرائهم وقد مثلت قصيدة ابن الجهم أنموذجاً رائعاً في هذا الموضوع لأن فيها مكابرةً وتحدياً ورؤية موضوعية جيدة.

خاتمة البحث والنتائج:

وبعد الانتهاء من هذه الرحلة مع الشعر الذاتي الذي صدر عن شعراء العصر العباسي الأول الذين ابتلوا بمحن الحياة وآفاتهما يمكن الخروج بالنتائج الآتية:

١. كان فقد البصر أشد المصائب إيلاماً، وأكثرها حزناً على نفوس أصحابها وقد كان ذاتياً بحتاً، ذاك أن الشاعر الكفيف يشعر بنقصٍ حادٍ في شخصيته، لأن فقد العين يفقد كل أملٍ لديه في هذه الدنيا كما رأينا وذلك عند صالح بن عبد القدوس، ثم إنه يحدد مسار شخصية الكفيف ويجعله محتاجاً إلى الآخرين حتى في رد السلام مثلما مر بنا عن الحديث عن أبي الشيبس الخزاعي والخريمي.
٢. صور الشعراء البائسون سوء حالتهم المادية بأساليب فكاهية تحمل في طياتها شيئاً غير قليل من المرارة، ولم يصور الشاعر البائس الفقير نفسه فحسب بل صور عائلته ومعاناتها.
٣. وأما شعر السجن فقد كان ذاتياً كله إلا قصيدة صالح بن عبد القدوس التي أشار فيها إلى أصحابه من المسجونين ومعاناتهم فجاء هذا الشعر معبراً أصدق تعبير عن ذات الشاعر وما يحسُّ به من آلام لا يدرك حجمها إلا من ذاق مرارتها وأكتوى بنيرانها.

المصادر والمراجع

- ١- اتجاهات الشعر العربي، د. محمد مصطفى هدارة، ط، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣.
- ٢- اسس علم النفس الجنائي، د. أحمد محمد الزعبي، ط دار زهران، عمان، ٢٠١٠.
- ٣- أشعار أبي الشيبس الخزاعي وأخباره، جمع وتحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٧.
- ٤- أمالي المرتضى تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط، البابي الحلبي، ١٩٥٤.
- ٥- الاعلام: خير الدين الزركلي، ط / دار العلم للملايين، ١٩٩٩.
- ٦- الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني تحقيق أحمد زكي العدوي، ط القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٨.
- ٧- تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ط دار المعارف، مصر، د.ت.

- ٨- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، ط، دار الفكر للطباعة، (د.ت).
- ٩- تجديد ذكرى أبي العلاء، د. طه حسين، ط ٩، ط، دار المعارف، مصر. د.ت.
- ١٠- ديوان الحريري لأبي يعقوب اسحاق بن حسان ٢١٤، جمعه وحققه علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعيد، بيروت - لبنان، ١٩٧١.
- ١١- ديوان علي بن الجهم، عني بتحقيقه خليل مردم بك، ط، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٤٩.
- ١٢- شعر المكفوفين، د. عدنان عبد العلي، دار اسامة للنشر والتوزيع، عمان - الاردن، ١٩٩٩.
- ١٣- شعر صالح بن عبد القدوس، تحقيق عبد الله الخطيب، ط / دار منشورات البصري، بغداد، ١٩٦٧.
- ١٤- شعراء عباسيون، مطيع بن الياس، مسلم الخامس، أبو الشمقمق، غوستاف لوجون، غروناوم، تحقيق محمد يوسف نجم، ط / دار الحياة، بيروت، ١٩٥٩.
- ١٥- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، د. شوقي ضيف، ط دار المعارف، مصر، ١٩٧٧.
- ١٦- الشعراء الصعاليك: حسين عطوان، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٢.
- ١٧- طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط دار المعارف، مصر، ١٩٥٦.
- ١٨- فوات الوفيات، أحمد بن عبد الرحمن الكتبي (ت ٤١٦هـ)، تحقيق الشيخ علي معوض، والشيخ أحمد عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠.
- ١٩- الورقة لأبي عبد الله محمد بن داود بن الجراح، تحقيق عبد الوهاب عزام، وعبد الستار أحمد فراج، ط دار المعارف، مصر، د.ت.
- ٢٠- وفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.